جاك دريدا بين الفلسفة والنقد الأدبي، من البنوية إلى التقويضية.

د. إسماعيل زغودة

جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف

ملخص البحث:

جاك دريدا من المفكرين القلائل الذين مزجوا عدة معارف مختلفة، يمكن القول بأنه دو فكر موسوعي، فقد زاوج بين الفكر الفلسفي والفكر النقدي، فما من باحث فلسفي إلا ويستعين بأفكاره، وما من ناقد إلا ويذكر هذا المفكر منوها بما جادت به قريحته في ميدان الفكر النقدي العالمي؛ وخصوصاً ذلك التجاوز الصريح الذي تميز به عندما راح ينتقد الفكر البنوي، متجاوزاً إياه إلى الفكر التفكيكي أو التقويضي.

ارتكازاً على هذه المعطيات ارتأينا أن نسلط الضوء في هذا البحث على الحياة الفكرية لجاك دريدا ومدى اهتمامه بالفلسفة والنقد الأدبي.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، الفكر البنيوي، الفكر النقدي، التقويضية، المعرفة، الهدم.

من هو جاك دريدا؟

ولد جاك دريدا في سنة 1930 بمدينة الأبيار الجزائرية، التحق سنة 1948 بثانوية بن عكنون، ليلتحق عام 1947 بشعبة الفلسفة أين أسقى معينه بأفكار برغسون وسارتر.

تتلمذ على يد آلبير كامي، وفي سنة 1949، وأظهر ميوله القوي للاتجاه الفلسفي، وذلك عندما تعمق في دراسة أفكار هايدغر.

في سنة 1950، قام بأول زيارة إلى فرنسا والتحق بمدرسة لوي لي غران في باريس Louis le grand في باريس.

في سنة 1952 التحق بمدرسة المعلمين العليا "وجمعته بألتوسير في تلك السنة معرفة وصداقة قويتان"[1].

قام بالاطلاع على الأرشيف الخاص بمورسل وكتب بحثه الموسوم بـ مشكلة التكوين في فلسفة هو سرا سنة 1953 وفي نفس السنة ربطته علاقة وطيدة بميشال فوكوه.

عاد إلى الجزائر سنة 1957 لأداء الخدمة العسكرية، لم يلبث غير سنتين ليعود الى فرنسا في عام 1959 أين قام بالتدريس لأول مرة في مدرسة خاصة للدراسات العليا في le mans برفقة صديقه حيرار جنيت قام ما بين 1960 – 1964 بتدريس الفلسفة العامة والمنطلق بجامعة السربون، حيث كان مساعدا لباشلار وبول ريكور وجان فال، حاضر لأول مرة عن فوكود وفي حضرته.

كان لبحثه الموسوم بـ (البنية، العلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية" دورا بارزا في ذيوع صيت الرجل في مختلف أنحاء أوربا، فأصبح "مشهورا في أفق المدارس النقدية المعاصرة، والتقى بول د يمان وجان لاكان وآخرين، ورأى كذلك رولان بارت، وهيبولت جان فيرنان وغولد مان مرة ثانية"[2].

في 1967 ألقى محاضراته الشهيرة تحت عنوان (الاختلاف)، ثم أصدر كتبه (الصوت والظاهرة، الكتابة والاختلاف، عن الغراماتولوجيا)

فمند هذه السنة، أصبح الرجل مشهورا في أروبا وفي خارج أوربا فاختير لعضوية أكاديمية الإنسانيات والعلوم بنيويورك، والأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم،

1- عبد الحليم عطية: *جاك دريدا والتفكيك*، دار الفارابي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، (2010)، ص:09.

2- المرجع نفسه، ص: 10.

ونال جائزة نيتشه، ومنح العديد من الأوسمة والألقاب الفخرية من جامعات مختلفة (كولومبيا ولوفان وكلية وليم).

ألقى بعض المحاضرات في جامعة الجزائر، التي عاد إليها سنة 1971، وفي سنة 1972 أصدر كتبه الثلاثة الموسومة بـ (هوامش الفلسفة، مواقع، التشتيت)

في 1974 أسس بمعية كل من سارة كوفمان ولاكو لابارت وجان لوك نانسي جمعية مهتمة بمشكلات الفلسفة.

شارك في مؤتمر في مدينة كوتونو بالبنين حول الفلسفة وتطور العلوم في أفريقيا، كما نظم بمعية أخرين برلمان الفلسفة سنة 1978.

في 1980 افتتح مؤتمر فلسفة اللغة في ستراسبورغ وفي عام 1982 أسس مع مجموعة من المفكرين الكلية الدولية للفلسفة كما قام بزيارة إلى اليابان والمكسيك والمغرب بدعوة من صديقه عبد الكريم الخطيبي.

1983، انتخب مديرا للكلية الدولية للفلسفة، فحارب التمييز العنصري كما كتب عن إمكانية إنشاء الجمعية للدفاع عن نيلسون مانديلا .

في عام 1988 قام بزيارة إلى القدس والتقى بالمفكرين الفلسطينيين كما قام في عام 2000 بزيارة إلى القاهرة وألقى محاضرات وعقد حلقات دراسية في المجلس الأعلى للثقافة والمركز الثقافي الفرنسي حول(التفكيك والعلوم الإنسانية في الغد) و(التفكيك في النقد الأدبي).

التفكيك بين الفلسفة والنقد:

يرى جل الدارسين الذين أتوا بعد جاك دريدا أن نظريته التفكيكية تعود إلى أصول فلسفية بالأساس وما الباحثون الذين يصنفونها في خانة النقد الأدبي ما بعد البنيوي إلا استثمار استعان به النقد من الفلسفة، يقول حسام نايل من خلال ترجمته لمقال موسوم بـ: التفكيك لصاحبه جوناثان كلر: "...عبارة عن نقاش واسع لاستراتيجيات القرّاء وعمليات القراءة، وهي الاستراتيجيات التي هيّأت بقصد أو دون قصد نقاد الأدب ودارسي نظريته لاستدخال الممارسة التفكيكية الممارسة الفلسفية أساسا في برامجهم النقدية والتنظيرية"[1].

يفهم مما سبق أن المنطلق الأساس الذي انطلق منه جاك دريدا في مشروعه الفكري يتميز بالتوجه الفلسفي، غير أنه استثمر في مجال النقد الأدبي ومن شأن جل العلوم الإنسانية التي كان منطلقها فلسفي بحت، مبني على تساؤلات مفترضة، ثم وصلت إلى ما هي عليه اليوم تتميز بخصابة الموضوعية التي هي صفة كالعلوم وعليه يمكن أن تردد مقولة "الفلسفة أم العلوم.

إن التفكيك مفهوم مشجّر، فكل معرفة إنسانية أو علمية إلا ويتبناها ويحتضنها، خصوصا وأن هذا المنهج يدعو إلى دينامية وحيوية مستمرة، "يتخذ التفكيك مظاهر عديدة: مرة يبدو موقفا فلسفيا وثانية يكون استراتيجية سياسية أو فكرية ومرة ثالثة يبدو طريقة في القراءة، وبالطبع ينتقل دارسو الأدب ونظريته انشغالا أكبر بقوة التفكيك من حيث كونه منهجا يصلح للقراءة والتفسير"[2].

1- جوناثان كلر: *التفكيك*، ترجمة: حسام نايل، مجلة فصول، العدد: 66، ربيع 2005، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: 88.

2- المرجع نفسه، ص:89.

ينسحب مفهوم التفكيك من معرفة إلى أخرى، ويتفلت من باحث إلى باحث آخر، مما يجعل القبض على دلالته النهائية من الأمور التي تبدو عسيرة أن يتعامل معها الباحث بنوع من التأني والحذر.

فالنظرية التفكيكية من النظريات التي استعصت على الضبط، سواء عند الفلاسفة والمفكرين أو حتى العلماء أو النقاد، نظرا لتعدد التيارات والمشارب واختلاف الرؤى والتوجهات، فالتفكيكية هي نظرية ظهرت بعد أفول نجم البنيوية التي تزعّمت الفكر الإنساني فرابة النصف قرن من الزمن، خصوصا بعد ظهور الدروس التي ألقاها فردينا ن دي دوسير على طلبته مطبوعة في كتاب سنة 1916 موسومة بـ: "دروس في اللسانيات العامّة" ففي نظر موراي كريغر Murray kreiger يعد جاك دريدا مفكّرا بنيويا، تغلب عليه البنوية وقهرُها، غير أنه تجاوزها أو أبطلها، من خلال أفكاره التفكيكية الجديدة"[1].

بيد أننا أثناء التعامل مع التفكيك الدريدي (نسبة إلى دريدا) يخرجنا من خانة البنيوية تماما إلى فكر جديد ما بعد البنيوية، ولكن مفهوم التفكيك يتراوح بين عدّة مجالات كما ذكرنا سلفا.

فالتفكيك في الفلسفة يختلف في مفهومه عن باقي المجالات، فهو يعني في المجال الفلسفي: "الاشتغال عبر الجينيالوجية التي قد شيدت مفاهيم الفلسفة اشتغالا لا يقيم عند هذه المفاهيم إقامة بداخلها الشكّ، ويعيّن في الوقت نفسه- من منظور خارجي ليس بالإمكان منحه اسما أو وصفا بعد- ما قد حجبه هذا التاريخ أو بعده، ذلك التاريخ الذي قد أنشأ نفسه، من أوّله إلى آخره تاريخا لهذا الكبت، وهاهنا يكمن البرهان"[2].

1- المرجع السابق، ص: 89.

2 - المرجع نفسه، ص: 89 .

فمبدأ الشك دوما يؤدي بالباحث إلى الاشتغال الحيوي للبحث عن البدائل المتاحة له، قصد التوصل إلى أفكار جديدة، مما يجعل البحث في دينامية مستمرة.

فكل نتيجة قابلة لمبدأ الشك، وعليه فالتساؤل الجديد هو هدم وتقويض لنتائج ماضية، والحدث السابق يكون سببا لنشوء حدث جديد، فالنتائج وليدة الأسباب. فالإحساس بالمرض يفرض على المريض التساؤل عن الأسباب التي أدت إلى هذا الإحساس، فيطلب من المريض إجراء التحاليل قصد معرفة السبب.

أما التفكيك في نظر هيليس ميلر فهو" بحث في الموروث الذي خلقه المجاز والمفهوم والسّرد وفي أحدهما الآخر، ولهذا السبب يعدّ التفكيك حقلا معرفيا بلاغيا.

ارتكازا على هذا النص نستنتج أن التفكيك قد يخرج من طابعه الفلسفي ليمس جوانب أدبية ولغوية محض، على سبيل البلاغة التي تعدّ علما لغويا.

لم يقف تفكيك جاك دريدا عند حدّ تجاوز كل النتائج المتوصل إليها وتقويضها، وإنّما بلغ به الأمر إلى نقد الفيلسوف أفلاطون الذي لم يول الكتابة أي أهمية، ولعلّ كتاب جاك دريدا "في علم الكتابة" أهمّ دليل على تجاوز دريدا المبادئ التي أقرّها أفلاطون.

فالكتابة عند دريدا ليست "محض مفهوم أو تصور، بقدر ما هي عملية إجرائية لا يمكن من غيرها فهم لبس فكر دريدا نفسه ودوره التقويضي للعقلانية الغربية فحسب، وإنّما مجمل الفكر الأوربي الموسوم بالحداثة"[1].

فهذا التجاوز الصريح الذي نادى إليه المفكر جاك دريدا، هو الذي جعل من نظريته تلقى أهمية كبيرة في مختلف مجالات المعرفة، مثلما كان الشأن بالنسبة للنظرية البنيوية التي تزعّمها العالم اللساني فردينا ندي سوسير، فهو الذي راح يدرس اللغات

1- محمد علي الكردي: *مفهوم الكتابة عند جاك دريدا، الكتابة والتفكيك*، مجلة فصول العدد: 02، صيف 1995، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص: 225.

الهندوأوروبية دراسة موضوعية، ما جعل العديد من الدارسين يسلكون نهجه أمثال "جاك لاكان"، "ميشال فوكو"، "كلود ليفي ستراوس"....

فدريدا هاجم الفلسة الأفلاطونية كما أنه تعارض مع الأفكار السوسيرية المبنية على ثنائية اللغة والكلام Langue/Parole، حيث أنه تجاوز الكلام واستبدله بالكتابة.

فالكتابة في نظر دريدا هي مصدر امتعاض الفلاسفة ونفورهم، فقد" افترض الفيلسوف الأمريكي ريتشارد رورتي أننا نظن بدريدا الإجابة عن السؤال الآتي: المفترض أن الفلسفة هي نوع من الكتابة، فلماذا يلقى هذا الافتراض مقاومة؟ وهو السؤال الذي يتحوّل في عمل دريدا إلى سؤال آخر يتسم بالاستخفاف: ما الذي يجب على الفلاسفة أن يعتقدوه بخصوص ما تكون عليه الكتابة، وهم الذين يرفضون هذا الوصف بالذات ذلك أنهم يجدون فكرة أن الفلسفة كتابة فكرة تستثير انزعاجهم على الدوام"[1].

كما أن نظرية دريدا قلبت الموازين وخالفت القاعدة التي جاء بها فردينان دي سوسير القائلة بوجود علاقة اعتباطية بين الدال والمدلول، حيث أن دريدا لا يرى من الضروري وجود العلاقة بين المكونيني السابقين للدليل اللغوي: "ولعلّ أهمّ ما يميّز هذه النظرية هو تشكيكها في العلاقة الثابتة أو المستقرة التي تقوم بين الدال والمدلول، أي بين الصورة الصوتية وفقا لتعبير سوسير ومفهوم الشيء أو تصوره، وهي العلاقة التي يحاول دريدا زعزعتها بردّها إلى فضاء الاختلاف وسلبيته الجذرية"[2].

1- جوناثان كلر: مرجع سابق، ص:91.

2- محمد علي الكردي: مرجع سابق، ص:228.

وعليه فالكتابة والاختلاف كمصطلحين هامين ظهر الأوّل لتهديم الفكر الفلسفي الذي يرى عدم جدواه، بينما ظهر الثاني للرد على الأفكار اللّغوية، التي جاء بها سوسير.

مفاهيم فلسفية عند دريدا:

قدم جاك دريدا مجموعة من الإشكالات التي تحمل بين ثناياها معضلات فلسفية وذلك حين يقول في كتابه.

"فما هو الفرق بين أن نعلم وأن نعتقد بأننا نعلم؟ وقبل ذلك ذلك، من يستحق طرح هذا السؤال؟ هل هو الحاكم المنغمس في تجربة ليلته أم الحالم عند استيقاظه؟ وهل بإمكان الحالم الحديث الحديث عن حلمه دون أن يكون مستيقضا؟ هل باستطاعته تسمية الحلم عموما؟ هل يستطيع تحليله بشكل صحيح واستخدام كلمة (حلم) بشكل ملائم دون ايقاف وخيانة – أي نعم – "خيانة" النوم؟[1].

انطلق الدارس جاك دريدا من خلال هذه الأسئلة الميتافيزيقية بغية الوصول إلى الفروق الجوهرية التي تميز بين الفيلسوف والأديب.

ففي رده على مجموع الإشكالات التي طرحها مَدّ المتلقي باجابتين مختلفتين تماما، الأولى سلبية وهي من تصور الفلاسفة والمفكرين وذلك حين يقول: "الأولى هي إجابة الفيلسوف وتكون لا قطعا. فلا يمكننا إلقاء خطاب جاد ومسؤول حول الحلم ولا يمكن لأحد أن يحكي حلما روداني يكون مستيقظا"[2].

وفي اعتقاد دريدا أن هذا الجواب السلبي هو الذي يحدد ما هية الفلسفة "ف (لا) هاته تربط مسؤولية الفيلسوف بالأمر العقلاني impératif rationnel’اليقظة

1- جاك دريدا: *استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة*، ترجمة وتقديم: عز الدين الخطابي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2013، ص:291.

2- المرجع نفسه، ص:291.

وللأنا صاحبة السيادة moi souverain وللوعي اليقظ. فما هي الفلسفة بالنسبة للفيلسوف؟ أنها اليقظة والاستيقاظ"[1].

لكن هناك إجابة مغايرة تتعامل مع الإشكالات السابقة بنوع من الايجابية، وكل هذا يكون في نظر المبدعين الذين أقصتهم الفلسفة اليونانية من شعراء وكتاب وأدباء وموسيقيين وراسمين ومسرحيين ومحللين نفسانيين، فإجابتهم تكون إما بـ (نعم) أو (ربما) أو (أحيانا) ومن هذه الأجوبة نذكر:

"وسيوافقون على الحدث وعلى تفرده الاستثنائي نعم، ربما يمكننا التصديق والاعتراف بأننا دون أن نستيقظ، نعم لي من المستحل أحيانا أن نقول النوم وأعيننا مغمضة أو مفتوحة، شيئا شبيها بحقيقة الحلم، معنى وسببا للحلم يستحق بألا يغرق في ليل العدم"[2].

قدم لنا جاك دريدا شخصا أعجب به كونه متفلت بين (لا) الفيلسوف و(نعم) و(ربما) و(أحيانا) إنه المفكر أدورنو Adorno، فأدورنو وضح لنا كيف تتشوه الأحلام عند اليقظة، وبالتالي فهو بين الإجابتين، الفلسفية القائلة بـ (لا) لأنه لا يمكن للحالم أن يحكي أحلامه بأمانة، والإجابة بـ (نعم)، لأنه يستطيع أن يحكيها مشوهة.

يقول جاك دريدا: "الفلسفة مطالبة بأن تستجيب للحلم وللموسيقى التي يمثلها شوبرت Schubert وللشعر والمسرح والأدب الذي يمثله كافكا Kafka، فعندما نستيقظ وسط حلم، حتى ولو كان من أسوأ الكوابيس، نشعر بخيبة أمل وبكوننا حرمنا من أفضل جزء"[3].

1- المرجع نفسه، ص:291.

2- المرجع نفسه، ص: 292.

3- المرجع نفسه، ص: 294.

مناهل جاك دريدا اللغوية:

من المعلوم أن جاك دريدا أخذ عن الفيلسوف نيتشه أهم الأفكار الفلسفية، حتى أن الاسمين التصقا ببعضهما البعض، فلا يمكن ذكر أحدهما عن الآخر، بيد أن التساؤل الذي لا بد أن يطرح هو: هل نهل دريدا من دروس فردينان دي سوسير؟

أخذ جل الدارسين الذين أتوا بعد دي سوسير من دروسه، كون أنها مهدت لظهور معظم العلوم الإنسانية من فلسفة ونقد وعلوم اللغة بشتى أنواعها. "تجمع الدراسات النقدية، والفلسفية منها واللغوية، على إفادة جاك دريدا من المصادر والفرضيات الأساسية لعلم اللغة السويسري تحديدا، إفادته من مبدأي، اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، وإنتفاء القيمة الذاتية للعنصر اللغوي واعتماده في امتلاكها على اختلافه مع العناصر الأخرى في السلسة أو النسق"[1].

بنى جاك دريدا نظريته اللغوية على مبدأ الاختلاف، حيث أن يرى أن العلامة اللغوية تكتسب قيمتها ووجودها من خلال التضاد والاختلاف، وعليه فالعلامة اللغوية كيان سلبي وفق نظرته، "إن لعبة الاختلافات، تمنع العلامات من أن تصبح في أية لحظة وبأية طريقة، عناصر بسيطة، أعني حاضرة في نفسها وبنفسها"[2].

يفهم مما سبق ذكره أن العلامة لا قيمة لها في حضور الاختلاف، "الأمر الذي يعني أن العلامات نفسها كيانات سلبية لا قيمة ولا عمل لها بذاتها، إنما تستمد كامل عملها وقيمتها من نظام الاختلافات الذي تنتمي له، إنها كائنات سلبية، لا مقام لها إلا من خلال كونها مظاهر ونتائج للاختلاف"[3].

1- عادل عبد الله: *التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل*، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2000، ص:37.

2- المرجع نفسه، ص:39.

3- المرجع نفسه، ص:39.

ما نخلص إليه هو أن جاك دريدا من الدارسين والمفكرين الذين تأثروا بدروس فردينا ندي سوسير اللسانية، بيد أنه طورها وتجاوزها إلى حد أنه نُعت بـ: مفكر ما بعد البنيوية، كما أنه استثمر المفاهيم السوسيرية وسبغها بسبغة فلسفية.

نقد التفكيكية:

من المعلوم أن المعارف الإنسانية مبنية على نظام التطور، ففلسفة أفلاطون القديمة تختلف عن فلسفة كانط الحديثة، كما أن الأدب الجاهلي يختلف عن الأدب الحديث، والدراسات النقدية المعاصرة تجاوزت الدراسات النقدية القديمة.

وعليه فالتفكيكية لم تسلم من الانتقادات العيوب، فبورديو مثلا انتقد التوجه التفكيكي الذي اعتمده دريدا، فبيير بورديو انتقد جاك دريدا في تمسكه بالفلسفة المثالية، يؤخذ على صاحب النظرية التفكيكية "كونه يتقوقع في ميدان الفلسفة المثالية ولا يفكر – على المستوى السوسيولوجي- في الوظائف التي تضطلع بها التفكيكية في المؤسسات"[1].

لم يقتصر نقد التفكيكية على الاتجاه الاجتماعي، بل جرى نقدها في علم اللغة وخاصة الانجليزي منه، وكان ذلك من خلال منظورين متباعدين هما "في منظور الفلسفة التحليلية التي طورها ر.كارناب، ب. راسل، ج. رايل وغيرهم، وضمن منظور ماركسي"[2].

أفاد جاك دريدا بفكره الثاقب جل المعارف الإنسانية، من الفلسفة إلى علم الاجتماع، ومن علوم اللغة إلى دراسة الأدب، فأفكاره أدت دورا بارزا في تطور المعارف الإنسانية عموما، فهو دارس استطاع أن يزاوج بين الفلسفة والنقد.

1- بيير زيما: *التفكيكية، دراسة نقدية*، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص:159.

2- المرجع نفسه، ص:163.